التنشئة الاجتماعية للأبناء في الأسرة الجزائرية قراءة سوسيو-ثقافية لمظاهر ودلالات التغير القيمي

عيســـات العمري
قسم علم الاجتماع جامعة سطيـف

مقدمـــــة :

تعد التنشئة الاجتماعية عملية محورية في حياة الكائن البشري برمتها، وبأبعادها ومراحلها الأربعة (المرحلة الجنينية، مرحلة الإنجاب إلى الوفاة، مرحلة الحياة البرزخية، والمرحلة الأبدية -يوم القيامة-) وغني عن البيان أن هذه الأخيرة كانت ولاتزال محل اهتمام العديد من الدارسين في مختلف العلوم (علم النفس، علوم التربية، علم الاجتماع، علم النفس الاجتماعي...الخ)، فهي بذلك العملية التي تساهم في تحويل الفرد من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي ـــ حسب طبيعة احتياجات وخصوصية كل مرحلة عمرية للإنسان ـــ، عن طريق جملة من الوظائف والأدوار تقوم بأدائها مؤسسات اجتماعية مختلفة (الأسرة، المدرسة، دور العبادة، وسائل الإعلام، الأطر الجمعوية ...الخ).

وتعد الأسرة إحدى أهم هذه المؤسسات والأنساق التي تقع على عاتقها عملية الإعداد والتنشئة الاجتماعية للأفراد ؛ فـــإذا كانت بالأمس القريب قد أدت أدوارا رياديـــــة في غرس القيم والمعايير والاتجاهات، والحفاظ علي توريث العادات والتقاليد ونقلها من جيل إلى آخر، فإنها اليوم بفعل التغيرات الحاصلة جراء مجموعة من الأسباب المختلفة أهمها : موجة العولمة الجارفة التي أثرت على وظيفة هذا النسق، ففسحت المجال إلى إحلال ثقافة قيمية شرسة دخيلة لا تعترف بمنطق الخصوصية للموروث الثقافي والقيمي للمجتمعات.

ولما كان المجتمع الجزائري ليس بمعزل عن هذا العالم، فإنه كان عرضة لهذه الهيمنة الثقافية الدخيلة على حساب منظومته القيمية الأصيلة؛ ويتجلى كل ذلك من خلال بروز أنماط وسلوكات توحي بالإغتراب القيمي على المستوى الفردي والاجتماعي، الشيئ الذي ولد

صراعا قيميا بات يهدد الموروث الثقافي والحضاري للأفراد ومنه للكيان المجتمعي على الإطلاق، وتزداد تجليات ودلالات كل هذا يوما بعد يوم.

وهذا ما سنحاول الوقوف عنده في هذه المداخلة - المتواضعة - وذلك من خلال قراءة سوسيو-ثقافية لأهم الدلالات والمظاهر التي تبرز طبيعة الصراع القيمي الحامي الوطيس في الوسط الأسري بالمجتمع الجزائري بين ما هو قيمي دخيل وما هو أصيل، وأثر كل ذلك على التنشئة الاجتماعية للأبناء.

أولا : محاذير مفهومية :

من المتعارف عليه أن "المعيار الأول لتصميم بحث دقيق هو الاهتمام بجميع التغيرات المؤثرة في المشكلة موضوع البحث، أما المعيار الثاني فهو التزام الدقة في التعبير وتحديد المفاهيم والمصطلحات" (1) من هذا المنطلق يعتبر تحديد المفاهيم من أهم الخطوات التي يتعين على الباحث أن يخطوها، ذلك لأنها تشكل في نطاق البحث العلمي منطلقا أساسيا لا يمكن تجاوزه، إذ يعتبر عدم تحديد الباحث لهذه المفاهيم وضبطها أحد الأسباب الأساسية في تشتيت اهتماماته وبعثرة جهوده.

وعليه فقد حرص الباحث على ضرورة ضبط أهم المفاهيم التي لها علاقة أساسية بموضوع المداخلة الموسومة بـــ : التنشئة الاجتماعية للأبناء في الأسرة الجزائرية ـــ قراءة سوسيو-ثقافية لمظاهر ودلالات التغير القيمي ـــ ومن جملة هذه المفاهيم ما يلي :

1- التنشئة الاجتماعية : SOCIALISATION

تتعدد التعريفات حول هذا المفهوم وذلك بتعدد المشارب العلمية والإيديولوجية للدارسين، وقصد الوقوف على مفهوم شامل متكامل للتنشئة الاجتماعية جدير بنا بداية أن نحدد مفهومها اللغوي.

- **لغة :** حيث تعني في اللغة العربية الاشتقاق من الفعل نشأ، نقول حدث الشيء أي نشأ وتجدد، أما بالنسبة للصبي أو الطفل فنقول نما وشب.

-**إصطلاحا :** فتدل على"تلك العملية التي يتعلم الفرد عن طريقها كيف يتكيف مع الجماعة عند اكتسابه للسلوك الاجتماعي الذي توافق عليه " (2).

ويرى علماء الإجتماع أن مصطلح التنشئة الاجتماعية يدل على تلك العملية التي يتلقى الطفل من خلالها أنماط من التفكير والسلوك بواسطة أعضاء الجماعة التي تقع عليها مسؤولية صياغة وصقل سلوكه(3) وجدير بالذكر ومن خلال هذه التعاريف أن التنشئة الاجتماعية بهذه الدلالات لا تنحصر على نسق واحد بعينه، فهي عملية شاملة تسهم فيها مجموعة من الأنساق المجتمعية تختلف أدوار كل منها حسب طبيعة وظائفها (الأسرة، المدرسة، المؤسسات الثقافية ... الخ) لتتكامل وتتساند وظيفيا لتنشئة جيل، بل أجيالا تتفاعل لخدمة المجتمع. ولما كان موضوع مداخلتنا مختصر على نسق الأسرة ودورها في تنشئة الأبناء فإننا نقتصر تعريفنا الإجرائي للتنشئة الاجتماعية في جملة الأدوار التي تؤديها الأسرة ومنه الوالدين في تربية الأبناء ورعايتهم لأجل تحقيق انسجامهم وتكيفهم في المجتمع، وبالتالي أداء أدوارهم فيه وإسهامهم في تحقيق تنميته.

2- الأسرة :

-لغة : وتعني الدرع الحصين، وأهل الرجل وعشيرته، وتطلق على الجماعة التي يربطها أمر مشترك.

وجاء عند **ابن منظور:** أسرة الرجل، عشيرته ورهطه الأدنون، لأنه يتقوى بهم، والأسرة عشيرة الرجل وأهل بيته(4). إذا كان من اليسير الوقوف عند هذه المعاني اللغوية ، فإنه من المستعصي على الباحثين إيجاد تعريف جامع مانع لمصطلح الأسرة، وذلك لكون هذا المصطلح (الأسرة) - ورغم أنه متعارف عليه عند عامة الناس - يصعب تحديده لأمرين هامين :

أ- خلو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من مصطلح الأسرة أو ما يعادله تماما، ولفظ (أهل) الذي تردد ذكره فيهما هو أنسب الالفاظ للدلالة على معنى الأسرة، ونفي كلمة أهل حرفيا، سكان بيت أو مسكن، أو بلدة أو قرية كما في أسرة الرجل، فهي تعني الساكنين مع الرجل في مكان واحد.

ب-غموض مدلول كلمة أسرة لكونه مفهوما مطاطا، ولكن هذا لا يمنع من وجود محاولات لتعريف الأسرة في الإصطلاح الشرعي والاجتماعي (5).

ففي المعنى الشرعي فقد جاء في كتاب الله تعالى ذكر الأزواج والبنين والحفدة بمعنى الأسرة في قوله عز وجل : ((وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)) سورة النحل الآية 72.

ويقول تعالى : ((يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)) سورة التحريم الآية 06.

أما مدلولها الاجتماعي فتعني ذلك النسق البنائي والوظيفي مكون من شخصين أو أكثر يكسبون مكانات وأدوار اجتماعية عن طريق الزواج والإنجاب في إطار ثقافة مجتمعية لها خصوصية المجتمع التي تتواجد به هذه الأسرة.

3-الطفولـــــة :كثيرة هي الدراسات التي اهتمت بهذه المرحلة العمرية في حياة الإنسان، وقبل أن نقف عند أهمية هذه المرحلة جدير بنا أن نقف بداية عند مفهومها ودلالات بعض المصطلحات التي تعبر بصورة تقريبية عنها.

يطلق لفظ الطفل في علم النفس على الذكر والأنثى من نهاية سنتي الرضاعة إلى البلوغ أو المراهقة، فهذه المرحلة هي أول مرحلة يمر بها الإنسان منذ ولادته، وهي ذات أهمية كبرى في تكوين شخصيته بعد ذلك، وفي هذا الصدد يؤكد **محمد فرج** أن مرحلة الطفولة هي مرحلة أساسية وهامة من مراحل النمو، وهي المرحلة الأولى من مراحل النمو وتكوين الشخصية الإنسانية وتبدأ من الميلاد حتى بداية طور البلوغ (6).

في ضوء هذه التعاريف فإنه- في إعتقادي- لا يختلف إثنان حول أهمية هذه المرحلة (الطفولة) في الحياة الإنسانية قاطبة، إلا أنه في كثير من الأحيان ما تفلت منا دلالات الكثير من المفاهيم ومضامينها، لذلك فمن الأهمية بما كان التعرف بداية على التصور الشامل على حياة هذا الكائن البشري (الإنسان)، كما جاء في عقيدتنا الإسلامية السمحاء يقول الله تعالى : ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ

لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)) سورة غافر الآية 67.

إن المتأمل في دلالات هذه الآية الكريمة يدرك - بما لا يدع مجال للشك - أن الخالق سبحانه وتعالى قد صور لنا حياة الكائن البشري وحقيقة توالي مراحله.

إلا أنه إذا ما نظرنا إلى التحليلات الأكاديمية في تشخيصها لمراحل الكائن البشري نلمس تلك الهوة في فهم حقيقة هذه المراحل، إذ لا يكاد يفرق الكثير منا بين مفهومي الولادة والإنجاب، برغم وضوح ذلك في النصوص الشرعية الإسلامية، وهذا ما سنوضحه في العنصر الموالي.

4- الولادة والإنجاب :

إن المتعارف عليه في الآدبيات السيوسو-نفسية والتربوية أن المصطلحين مترادفين، أي مختلفين في اللفظ متساويين في دلالة المعنى؛ غير أن المتفحص للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يدرك بما لا يدع مجال للريب، وهو ما أثبته العلم الحديث في مجال الهندسة الوراثية أن هناك فرقا جليا بين المفهومين، ففي فترة الحمل الواقعة قبيل الشهر الثالث يبدأ الجنين يتشكل على هيئته البشرية المعروفة شيئا فشيئا؛ فيتكون له السمع ثم البصر وبقية الحواس، بعد أن تخلقت فيه كل أعضاء الكائن البشري، وهذا الأمر اكتشف حديثا في عصر التقنيات الحديثة.

وقد وردت تفاصيل كل هذا في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في قوله تعالى : ((ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلأَبْصَارَ وَٱلأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ)) السجدة الآية 09.

ومعلوما أن المرأة الحامل إذا أجهضت بعد الفترة السالفة الذكر فإن الجنين المتوفى تجرى عليه مراسيم الميت كاملة من صلاة ودفن وغيرها ؛ بل أن القوانين الوضعية لبعض الدول يحاسب فيها قاتل الجنين في هذه المرحلة على أنه قاتل إنسان بالغ؛ بل وتكون العقوبة أقصى، كل ذلك لأن فيه روح.

هذا وقد أكد الدكتور **عبد المجيد الزنداني** عام 1983 - ومن بعده **كيث مور** - في بحثه " مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة" مراحل تطور نمو الإنسان خلال مرحلة الجنين، وهذا ما اقره العلم الحديث في مجال الهندسة الوراثية أنه في اليوم الثاني والأربعون (42) من عمر الجنين يكون قد أكمل تخصص خلاياه وقد تخلقت أجهزة جسمه جميعا، حتى شكله الخارجي يكون متغيرا عن اليومين السابقين فيكون أكثر انسجاما بشكل الإنسان المصغر في تكوينه الأولى؛ وهذا ما قصده الحديث الشريف في قوله ـــ صلى الله عليه وسلم - : "إذا مر بالنطفة إثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال يا ربي أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك" رواه الإمام مسلم في كتاب القدر (صحيح مسلم 04/2037).

وفي هذه المرحلة من عمر الجنين تنفخ فيه الروح من قبل الملك الخاص فيكتب شقي أم سعيد (7).

ثم يخرج الإنسان إلى هذه الدنيا بإذن ربه يقول جل شأنه : ((**هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)) غافر الآية 67.

وبناءا على هذا كله فإن **الولادة** تبدأ مع نفخ الروح في الجنين ؛ أي ابتداء من اليوم الثاني والأربعون وهو بهذا يحتاج إلى رعاية خاصة تتطلب ضرورة وجود ثقافة صحية لدى الوالدين، وذلك لما لهذه المرحلة من حساسية على صحة وسلامة الجنين بل وحتى أمه.

ثم تأتي بعدها مرحلة **الإنجاب** أي بخروج هذا الجنين من رحم أمه، وبهذا سنكتشف وعيا زائفا أخر يرتبط ارتباطا وثيقا بعدم التفرقة المفاهيمية هاته (بين الولادة والإنجاب)، ويتعلق الأمر بتاريخ الميلاد الحقيقي للإنسان والذي يبدأ كما أسلفنا الذكر بنفخ الروح فيه ؛ وعليه يمكننا القول أن كل تواريخ البشرية جمعاء ما هي إلا افتراضية، فتاريخ ميلادي أنا وأنت القارئ لهذه الأسطر هو خاطئ بإعتقاد ما يجب أن يكون؛ ذلك أن الأصح أن نقول - على سبيل المثال - تاريخ ميلادي حوالي 13 أفريل 2003 ؛ فمصطلح حوالي يجعلنا نؤكد على أهمية مرحلة الولادة في حياة الكائن البشري، ومرة أخرى نسهب في التحليل بما هو واقعي

ونقول أن المرأة في شهور حملها تبدأ العد حتى الشهر التاسع لتنجب وبعد ذلك وللأسف يبدأ العد من جديد عوض أن يستمر ؛ فالولد أو الطفل حينما ينجب بافتراض ما يجب أن يكون، يكون عمره في بداية إنجابه 10 اشهر وليس شهرا (*) إن الرؤية الحقيقية والوعي الصحيح للتنشئة الاجتماعية تؤكد أنها عملية مستمرة سلسلتها مترابطة الحلقات.

5-الثقافـــة :

لابد من الإشارة إلى أن مفهوم الثقافة يعد من المفاهيم التي حظيت بتعاريف كثيرة جدا ، فكان محل اهتمام من الباحثين والدارسين في العلوم الاجتماعية والإنسانية ، وسنحاول أن نقف عند بعض أهم هذه التعاريف كما يلي :

- عرفها هارسكوفيتش **Herskovits** بأنها : "الثقافة هي جانب البيئة أو المحيط الذي هو من صنع البشر"

-كما عرفها كل من **Bamlund** و **Araki** تعريفا سلوكيا بأنها: "الثقافة لا وجود لها ما عدا ما يتجلى منها في سلوك الأفراد الذين ينتمون إليها، وهي مفهوم مجرد مبني على ما يظهر من صفات عامة في سلوك جماعة من الأفراد " (8).

بناء على هذين التعريفين نعتقد أن الثقافة لا تأت من العدم بل هي نتاج اجتماعي تنتقل من جيل إلى آخر عبر متصل التأثير بأبعاده المحلية، الإقليمية، والعالمية.

6- القيم الثقافية :

تعرف القيم على أنها تنظيمات عقلية انفعالية معممة نحو الأشخاص والمعاني والأشياء وأوجه النشاط، والقيم موضوع الاتجاهات، كما أنها تعبير عن دوافع الإنسان وتمثل الأشياء التي توجه رغباتنا واتجاهاتنا نحوها(9).

من هذا المنطق فالقيم هي نتاج اجتماعي يتعلمها الفرد ويكتسبها وتنتشر تدريجيا من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، وعن طريق التفاعل الاجتماعي يتعلم الفرد أن بعض الدوافع والأهداف تفضل عن غيرها؛ أي أنه يقيمها على أنها أحسن من غيرها وأكثر أهمية (10).

هذا فيما يخص القيم بصفة عامة، أما إذا أردنا أن نحدد مفهوم القيم الثقافية فجدير بالذكر الإشارة إلى عناصر الثقافة كما حددها **Hofstede**، وهذا حتى يتسنى لنا فهم معنى القيم الثقافية بمفهوم شمولي وهي كما يلي (11).

- **الرموز (Symbols)** : وتشمل اللغة اللفظية وغير اللفظية واللباس الذي يلبسه الأفراد وكل ما يعمل على تعزيز ولاء الفرد للجماعة التي ينتمي إليها.
- **الأبطال (Heros) :** وهم الذين يتخذهم المجتمع قدوة للخلف يقتدون بهم ويتعلمون منهم.
- **الطقوس (Rituals)** : وتشمل الروتينيات اليومية التي تعبر عن القيم وهي تدعم القيم وتعززها.
- **القيم (Values)** : وهي الجانب الخفي من الثقافة الذي لا يستنتج إلا من خلال سلوك الأفراد، وهي جانب واحد فقط من جوانب الثقافة المختلفة.

كل هذه العناصر تشكل لنا ما يسمى بالقيم الثقافية.

7- القيم الدخيلة والقيم الأصيلة :

يقصد بالقيم الدخيلة مجموعة الأنماط الثقافية في أشكالها المتعددة (مادية ومعنوية) التي تحل محل القيم المتعارف عليه في المجتمع الأصلي أو تؤثر عليه، فتصبح مزاحمة ومستأصلة لها أو متعايشة معها.

أما القيم الأصيلة فهي منظومة ما هو متعارف عليه في المجتمع الأصلي متفق عليه يحدد أنماط ومعايير واتجاهات المجتمعات داخل المجتمع، وتنظم وفق الحياة الإجتماعية ومنه العلاقات بين الأفراد في إطار الخصوصية الثقافية والإديولوجية للمجتمع الأم.

ثانيا : الطفولة والأسرة أية علاقة ؟ جدلية الواجبات والحقوق.

لا يعيش الفرد بمعزل عن غيره من الناس، وتنتهي حياة كل من يحاول ذلك إلى الأفول وينئى بنفسه عن الطبيعة الإنسانية، ومن هذا المنطلق تعد الأسرة نسقا اجتماعيا ونظاما قديما قدم النوع الإنساني نفسه (12). ولعل التحول المطرد للأسرة عبر الزمن نتيجة حتمية لعملية مستمرة وديناميكية للتغيير اقتضتها الضرورة الحياتية للإنسان عبر مختلف الحقب والأزمان،

وبالتالي اقترن مفهوم وأهمية الأسرة بمختلف الوظائف والواجبات التي تقوم بها، وسنحاول ذكر أهمها فيما يلي:

1-الوظيفة البيولوجية للأسرة :

وتتمثل في الإنجاب يقول الحق تعالى: ((هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّآ أَثْقَلَتْ دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ، فَلَمَّآ آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَآ آتَاهُمَا فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)) الأعراف الآية 189-190.

ويقول جل شأنه أيضا: ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوۤاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)) الروم الآية 21.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تناكحوا تناسلوا تكاثروا، فإني مباهي بكم الأمم يوم القيامة".

إن مسؤولية التنشئة الاجتماعية في هذا الجانب (البيولوجي) أولاها ديننا الحنيف أهمية قصوى؛ إلا أننا وبنظرة فاحصة للواقع المجتمعي نجد أن هذه الرابطة المقدسة أي الزواج أصبحت تقوم على أسس هشة و على أعراف وتقاليد تجاوزها الزمن، لأنها لا تتوافق والأسس الدينية والعلمية للتربية، وانتشر بذلك الوعي الزائف بالمسؤولية والأدوار.

إن هذه المرحلة تقتضي مراعاة الكثير من المرتكزات سواء ما تعلق في اختيار الزوج والزوجة وإلزامية الفحوصات قبل الإقبال على الزواج ...الخ ؛ ونشير هنا إلى أن المجتمع الجزائري سنة 2006 أقر بإلزامية الفحوص الطبية قبل الزواج، ونتسائل هنا لماذا حتى 2006 ؟.

إن الإجابة تعكس بشكل أو بأخر إهمال هذه المرحلة الحساسة وضيق الأفق والرؤية المجتمعية للمراحل الحياتية للكائن البشري. إن الواقع يكشف أن المرحلة الجنينية، بل وقبل الحمل لم تعط القدر الكافي من الأهمية إذ لا يزال الكثير من الناس يعتقدون أن الجنين يعيش في عزلة عن المحيط الخارجي وتأثيراته المختلفة، وهو ما ينفيه العلم الحديث حيث يقول في هذا الصدد **صامويل توليردج** : " إن الأشهر التسعة لحياة الإنسان في رحم أمه تفوق من حيث أهميتها وخطورتها حياة الكائن برمتها " (13) . فأين نحن من كل هذا ؟!

2-الوظيفة النفسية للأسرة :

ويكمن إجمالها فيما يلي : توفير الدعم النفسي للأبناء وذلك بمراعاة مرحلتي الولادة والإنجاب وخصوصية احتياجات كل مرحلة، إذ وعلى سبيل المثال - لا الحصر - أثبت العلم الحديث أن الجنين في رحم أمه يتأثر بالكثير من المثيرات التي تؤثر على سلوكياته فيما بعد؛ فالعلاقة الزوجية بين الزوج وزوجته أثناء مرحلة الحمل لها أثرهـــا العميق في التكوين العصابي لدى الطفل وهنا يوصي علماء النفس والبيولوجيا بضرورة إعطاء رعاية خاصة للزوجة الحامل في هذه المرحلة.

ولا يتوقف هذا الجانب هنا فحسب، بل حتى خلال سنوات الإنجاب الأولى اين تزداد أهمية الرعاية النفسية للأبناء في هذه المرحلة من عطف وحنان وتغذية روح الإنتماء الوجداني لديهم، ولن يتأت ذلك إلا بخلق ثقافة حوار بناء وإيجابي مع الأبناء.

3- الوظيفة الاجتماعية للأسرة :

لقد فطر الله عز وجل الناس على حب أولادهم قال تعالى : ((**ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**)) الكهف الآية 46.

من هذا المنطلق تأتي الوظيفة الإجتماعية لتكون حلقة من سلسلة المراحل القبلية للتنشئة، وهنا تجدر الإشارة إلى أن الأبناء يحتاجون إلى نوعين من الرعاية (مادية) كالتغذية و(روحية) كالحنان والعطف، كما ذكرنا سالفا، وفيما يتعلق بجانب التغذية لدى الطفل فقد أكد الله سبحانه وتعالى على هذا في قوله : ((**وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ**)) البقرة الآية 233.

وتجدر الإشارة هنا أن العلم الحديث قد أثبت أن الأبناء الذين يرضعون رضاعة طبيعية (حليب الأم) سيتمتعون بصحة جسمية ونفسية وروحية جيـــدة، بينما الذين يعتمدون في تغذيتهم على بدائل أخرى (حليب اصطناعي، أنواع العصير ...الخ) سيكونون أكثر عرضة للأمراض المختلفة هم وأمهاتهم، إلا أن الملاحظ في واقعنا المعيش لاسيما عند الزيجات حديثي العهد فإن هناك إهمال لجانب التغذية الطبيعية، وهذا تحت مبررات لا مبرر لها كالحفاظ على جمال المرأة وصحتها...فأصبحن يقدمن بدائل غذائية لأطفالهن، وهذا ما

انعكس سلبا على صحة وسلامة الأبناء ؛ وأصبحنا نشتكي من غياب روح الإنتماء الأسري فالإجتماعي للأفراد إيزاء أوليائهم فأسرهم فمجتمعاتهم فقومياتهم؛ "**نعتقد هنا أن فاقد الشيء لا يعطيه**"، إن هذا الوعي الزائف واللامبالاة سوف يؤثر سلبا على التماسك الاجتماعي داخل الأسرة ومنه على المستوى الاجتماعي برمته.

وفي هذا المجال فقد دعا الإسلام إلى إيجاد وسط مستقر ينشأ فيه الأبناء بعيدا عن الضغوط النفسية والاجتماعية ، قال صلى الله عليه وسلم : "**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**".

هذا وقد أكد علماء التربية أن هناك مراحل أساسية للتنشئة الاجتماعية المثلى للأبناء، إذ أن المرحلة الأولى البيولوجية (اصطلح عليها بالمرحلة الطبيعية)، ثم مرحلة التنشئة الاجتماعية الثقافية، ثم أهم مرحلة وهي مرحلة الطفل المبدع؛ أي الطفل إطار الغد وما يؤديه تجاه أسرته ووطنه وإنسانيته.

ثالثا : أهم تجليات الصراع القيمي بين القيم الدخيلة والأصيلة.

...يا له من مخاض عسير حقا، ذلك الذي تمر به البشرية وهي على أعتاب القرن الواحد والعشرين، قرن المعلومات (بمجتمع المعرفة)، ومع رهبة الولوج إلى هذا العالم المثير والمخيف في آن واحد تتجلى وتطفو على السطح سجالات فكرية تتخندق في طروحات نظرية تحت مبررات مختلفة ومتباينة الأهداف، ويمكن إيجاز هذه السجالات في محورين أساسيين يتعلق الأول بالنهايات (نهاية التاريخ، نهاية الدولة، نهاية الأسرة، نهاية القطبية الأحادية ...الخ).

أما الثاني فيشتمل على طروحات المابعديات (ما بعد الصناعة، ما بعد الحداثة، ما بعد البترول، ما بعد الإرهاب...).

وفي كنف كل هذا أضحى المجتمع الحديث يعرف تغيرا رهيبا، لا سيما حينما يتعلق الأمر بالبعد القيمي الذي يعد حجر الأساس في البناء الاجتماعي، هذا الأخير لم يصبح بمعزل عن واقع حال المجتمع بكل أنساقه ومكوناته وأبنيته.

وتعد الأسرة نسقا محوريا في البناء الاجتماعي لما لها من دور في تحديد معالم المنظومة القيمية للأفراد في المجتمع، ولا ريب في ذلك إذا ما تتبعنا السياق التاريخي لهذا النسق وما أوكلت له

من أدوار ووظائف ريادية في عملية الإعداد والتنشئة الاجتماعية للأجيال ؛ إلا أنه وانطلاقا مما تسوق له الطروحات السالفة الذكر، وبالأخص طروحات عالم النهايات نجد أن هناك مظاهر وتجليات لم تعد خافية عن العيان تؤكد ذلك التراجع الوظيفي للأسرة، وما بروز **مفهوم الأسرة البديلة، الأمهات العازبات...** لأكبر دليل على الخلل البنائي الوظيفي الذي طال هذه الأخيرة.

وقبل أن نسلط الضوء على واقع هذا التراجع والتنصل -إن صح التعبير- من الأداء للأدوار والوظائف للأسرة في المجتمع الجزائري حري بنا الوقوف عند بعض مظاهر بداية نهاية الأسرة ككيان فطري طبيعي في المجتمع الإنساني بالمجتمعات الغربية.

1- في مدى واقعية الأسرة البديلة في المجتمع الغربي :

قبل الحديث عن هذا الموضوع تستوقفني مقولة الفيلسوف **هيجل** الموجهة للطلاب الجدد بألمانيا سنة **1813** حيث قال: "إذا كانت القوانين والفلسفات التي عليها أن تقدم لنا القاعدة الصلبة للتوجيه هي نفسها غير ثابتة فأين يكون المرجع، ومن أين يكون التوجيه؟" (14) إنه حقا كلاما- وإن قيل منذ حوالي قرنين من الزمن — يجعلنا نتأمل في حقيقة مفادها هذا التغير السريع الذي يحدث في عالمنا اليوم، فبالرغم من التطور المادي والبذخ المعيشي الذي يعرفه المجتمع الغربي، إلا أنه يعرف تفاقما للمشكلات الاجتماعية والآفات باختلاف أنواعها. وكل هذا نتاج غياب بوصلة التوجيه القيمي بما يتماشى وإنسانية الإنسان وطبيعة سليقته وسننية فطرته. إن الحديث عن هذا المفهوم السالف الذكر - الأسرة البديلة - لم يأت من العدم بل أملته ظروفا وتغيرات كان أن مست الأسرة أولا، وحينما نقول الأسرة فنعني بذلك كل ما يرتبط بها من علاقات اجتماعية بين الأفراد في الوسط الاجتماعي بناء على مجموعة الضوابط والمعايير والقيم التي تحكم طبيعة المجتمع الغربي، وكل هذا يتجلى من خلال بروز على سبيل المثال -لا الحصر- **ظاهرة استئجار الأرحام**، هذه الظاهرة التي استفحلت في المجتمع الغربي واصبحت واقعا معيشا؛ أين أوجد هذا المجتمع وسطا آخرا يمكن للطفل أن يعيش ويترعرع فيه بديلا عن الوسط الطبيعي الأصلي **(رحم الأم الأصلية)**، وكل هذا تحت مظلة التطور العلمي في مجال الصحة ، وما يعرف بالإستنساخ والهندسة الوراثية ... !!.

فكانت الثمرة أطفال الأنابيب، والسؤال المطروح هنا من أين يستمد هذا الطفل توافقه الروحي والنفسي ؟ من أم **آجرة** أو حامل **مستأجرة** أو أسرة **هاجرة** ! وتستمر مسيرة التنشئة الاجتماعية عبر متصل إرضاعه فيما بعد (رضاعة إصطناعية) بديلة عن الطبيعية، ثم يؤخذ إلى مؤسسات رياض الأطفال (الملاجئ) وبعدها إلى المدرسة فالمجتمع...

إنها المسافة التنشيئية للطفل في فلسفة الغرب... ولاريب أن نلحظ بعد ذلك مظاهر أخرى أكثر دلالة وتبريرا لتأصيل مفهوم الأسرة البديلة ؛ بل لنقل نهاية الأسرة ...

إن الاعتراف القانوني للزواج المثلي، فئات الشواذ، والحق في تعدد أزواج الزوجات ...الخ كلها مظاهر لإحياء **الداروينية الجديدة** وبداية الأفول والنهاية للكيان الأسري، ومنه للعلاقات الإجتماعية الإنسانية إن القاعدة الصلبة بالطرح **الهيجلي** بثنائية أين ومن أين ؟ تؤكد ثبوت جريمة المجتمع الغربي مع سبق الإصرار والترصد في حق الناموس الكوني والفطري الإلهي لإنسانية الإنسان.

2- تنتشئة الأبناء في الأسرة الجزائرية بين واقع التغريب ووقوعية التأصيل :

وأنا أحاول إيجاد مضمون لهذا العنصر الذي يبدو واسعا يصعب التحكم في مضامينه أجد نفسي مضطرا قبل الولوج والإسهاب في حقائق واقع التنشئة الاجتماعية للأبناء إلى الثناء على طلبة السنة الثالثة علم الاجتماع التربوي، لهذا الموسم 2008-2009، والذين وفي خضم إشرافي على تلقينهم مقرر المقياس (التنشئة الاجتماعية) وقيامهم ببعض البحوث الميدانية أبدوا تفاعلا متميزا مع المواضيع المعالجة، وهذا نتاج واقعية النقاش والقراءات النقدية الفاحصة لواقع هذه الأخيرة في المجتمع الجزائري.

ومهما يكن من أمر فإن العلم اليوم سوف لن ينتزع مصداقيته إلا من الواقع المعيش [**]، وغير بعيد عن هذا الواقع فإن الأسرة الجزائرية ودون الغوص في السرد التاريخي للمراحل التي مرت بها عرفت وتعرف تصادما عنيفا بين الكثير من القيم التي كانت بالأمس القريب متماسكة مشكلة بناء مرصوصا لثوابت غرست في أجيال الأمس، فكانت حصنا منيعا أمام كل شرارات القيم الدخيلة، وهذا رغم الظروف الاستعمارية والاهتزازات التي حاول من خلالها الاستعمار الفرنسي طمس معالم الثقافة العربية الإسلامية من هذا المجتمع بيد أن الواقع

اليوم يؤكد بما لا يدع مجال للريب والشك والتشكيك ان هذه الهوية وتلك القيم قد أضحت مهددة بالأفول والزوال – إن لم نقل قد زال الكثير منها – ويتجلى هذا في الفهم الزائف للتنشئة الاجتماعية للأبناء من قبل الوالدين (***) من خلال بعض مظاهر التربية والإعداد والعلاقة التي تربط بين الابناء وأوليائهم، ففي الوقت الذي تكلمنا فيه عن مفهوم الأسرة البديلة في الغرب أو حتى نهايتها، فإننا في المجتمع الجزائري أمام مظاهر تنحو نحو هذا المسلك ؛ فالرؤية المجتمعية الضيقة للتنشئة الاجتماعية وانعدام الثقافة الصحية والدينية لدى الوالدين يعدان سببا مباشرا في بروز الكثير من الانحرافات السلوكية لدى الأبناء في مراحل متقدمة من حياتهم، فالزوجين قبل الإنجاب حينما لا يدركان مدى أهمية المرحلة الجنينية (مرحلة الولادة) فإنهما بوعيهما هذا سيفوتون على الأبناء مرحلة هامة في عملية إعدادهم وتنشئتهم الاجتماعية في الأسرة ثم المجتمع فالعالم الذي سيعيشون فيه، ونود الإشارة هنا على أن هناك فهما ماديا للتنشئة الاجتماعية للأبناء في المخيال الاجتماعي عند الكثير من الأسر في المجتمع الجزائري ؛ ولا أدل على ذلك غياب الثقافة الصحية والتربوية لدى الأباء والأمهات لا سيما في مرحلة الحمل، حيث أن وجود الطفل في هذه المرحلة كجنين في رحم أمه يبقى افتراضي في نظر المحيط الأسري ككل وحتى المجتمع بمختلف مؤسساته التنشيئية، فلا ينظر لهذا الأخير على أنه أصبح فردا في الأسرة يحتاج إلى رعاية واهتمام خاصين، بل ينتظر حتى ينجب لتبدأ رعايته ؛ وهنا الإقتران المادي للتنشئة والرعاية الوالدية وحتى المجتمعية تظهر بمجرد وجود ملموس للجنين وما يعبر عنه بالطفل داخل الأسرة، وللتدليل والبرهنة أكثر على هذا الوعي المادي الزائف للتنشئة الاجتماعية نضرب المثال الواقعي الآتي :

إن الأم أثناء حملها تبدأ بمتابعة هذه المرحلة منذ الشهر الأول للحمل حتى الشهر التاسع – في الحالة الطبيعية للحمل المتعارف عليها بتسعة أشهر – وبعد عملية الإنجاب مباشرة يبدأ العد من شهر أول جديد للطفل، أي أن القطيعة تحصل بين المرحلة الجنينية ومرحلة الإنجاب – **من الجنين في الرحم إلى الطفل في الحضن** – وهنا نتساءل لماذا لا يكون عمر الطفل حينما ينجب عشرة أشهر بعد أن أمضى تسعة أشهر في رحم أمه حيا يرزق ؟

الإجابة عن هذا السؤال أو لنقل التساؤل تجعلنا نؤكد - جازمين- بأن المخيال الاجتماعي يبقى مكبلا بضوابط مادية في التعامل مع حقيقة التنشئة الاجتماعية للأبناء ؛ فالأب أو الأم او حتى أفراد الأسرة والمجتمع حينما لا يشاهدون عيانيا هذا الطفل (يلعب، يضحك، يصرخ، يكسر ..الخ) يعتقدون أنه يسقط من معادلة الوجود الإجتماعي كفرد وعضو في الأسرة والمجتمع، إنها المفارقة المادية التي تقدس ما هو كائن وتكفر بما يجب أن يكون !!

رابعا- تنتشئة الأبناء في الأسرة بين صعوبات الأداء وإمكانات التطبيع :

1- صعوبات الأداء الأسري في تنشئة الأبناء :

تواجه الأسرة العديد من الصعوبات والمخاطر تحول دون الأداء الفعال في الإعداد الحسن للنشئ، وذلك ما أضحى واقعا ملموسا ومعيشا ، وهذا ما سنحاول إدراجه كما يلي :

أ-التناقضات القولية والسلوكية (الفعلية) للوالدين:

وهذا ما نلاحظه في التفاعل بين الوالدين؛ حيث حينما يحاولان توجيه بعض سلوكات أبنائهم تجدهما يقومان بنفس هذه السلوكات في علاقاتهم البينية، أو حتى مع الأخرين من الجيران والأصدقاء ، فالأب الذي يمنع أبنائه من التدخين ـــ على إعتبار أنه مضر بصحتهم - تجد الكثير منهم (أي الأباء) مدمنون على هذا السلوك، فأين القدوة الأبوية ؟ وهناك الكثير من الظواهر والسلوكيات تبقى تؤكد التناقض في أداء الأدوار فأين النموذج القدوة ؟

ب-الإنفصام وعدم التنسيق بين المدرسة والأسرة :

لا يتخلف إثنان حول أهمية هذين النسقين في تلقين الأسس التربوية والمعرفية للأبناء ، إلا أنه وفي الآونة الأخيرة وبفعل تأثيرات خارجية وأخرى داخلية أضحت هناك هوة إزدادت عمقا بين أداء وظائفهما وتكاملهما، ولعل ما أصبحت تمليه العولمة بمختلف أشكالها على هذه المؤسسات وغيرها السبب المحوري في هذا التراجع؛ وهذا كما أشرنا إليه نتيجة التراجع القيمي للموروث الحضاري والثقافي الأصيل وشراسة وقوة ما هو دخيل، وهذا ما يتجلى في الكثير من مظاهر العنف والإستلاب الثقافي والإنحراف والسلوكات اللاأخلاقية الذي بدأت تدمن عليها هذه الأجيال وأصبحت الأسرة عاجزة على تهيئة هذه الأخيرة للمرحلة اللاحقة من التلقين المعرفي والتربوي، ولم تسلم المدرسة من هذه التراكمات السريعة وبالتالي

أضحت هذه الأجيال عرضة للتغريب وفقدان روح الإنتماء المجتمعي نتاج التراجع الرهيب لقيمنا وخصوصياتنا الإديولوجية الاجتماعية والثقافية.

جـ- أثر وسائل الإعلام :

إن التطورات التكنولوجية الحاصلة في عالم اليوم أصبحت سلاح ذو حدين ؛ فإذا كنا لا نختلف حول الكثير من إيجابياتها في تقريب المسافات وتدفق المعارف والمعلومات ، فإننا يجب أن نكون واعين أكثر مما سينجر عنها من مخاطر على منظومتنا القيمية وتراثنا الثقافي، وبالتالي إعدادا وتنشئة أبنائنا، وفي هذا الإطار قد أكدت الكثير من الأبحاث والدراسات أن الطفل العربي والمسلم يتعرض لمؤثرات مادة إعلامية مدروسة وموجهة من قبل مختصين، ولعل ما يؤكد ذلك إحدى التصريحات لـ : **شمعون بيريز** رئيس وزراء الكيان الصهيوني السابق حينما قال : "لسنا نحن الذين سنغير العالم العربي ، ولكنه ذلك الطبق الصغير الذي يرفعونه على سطوح منازلهم".

إن هناك مخاطر متعددة توجه سلوك الأطفال بل وحتى الكبار، وتبعدهم عن حقيقة واقعهم المعيشي، وتجعلهم يعيشون عالما بل عوالم غريبة تزيد من إغترابهم عن ذواتهم ومنهم عن مجتمعاتهم ؛ ولعل التأثير الفضيع للفضائيات ومختلف الوسائط الإعلامية الأخرى (الأنترنيت، الهواتف النقالة، أجهزة الإستماع الصوتي ...الخ) على سلوكيات وقيم الأفراد لأكبر دليل على خطورة الوضع الراهن على المنظومة القيمية؛ ولسنا بعيدين عن المسلسلات المدبلجة التي

• عرفت رواجا كبيرا في المجتمعات العربية بصفة عامة والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص، حيث تعود بدايات هذا الإجتياح الإعلامي الصاخب على المجتمع الجزائري إلى سنوات التسعينيات، أين برزت المسلسلات المكسيكية متمثلة في مسلسل "**مهما كان الثمن**" عام 1993 الذي صور قصة حب مستحيلة بطلاها **أناكريستينا وأليخاندروألداما** وفق دبلجة واردة بلغة عربية كلاسيكية جمعت حولها مختلف فئات المجتمع التي فرقتها هموم الحياة اليومية، لتليه بعد سنوات لاحقة عدد من الإنتاجات الدرامية المكسيكية الأخرى التي واصلت تحقيق الصدى والإنتشار على غرار مسلسل "روزاليا"، "**وأرضي ليست للبيع**" وأخيرا "**كاسندرا**" الذي تم بثه على طول صيف 1998 على القناة الأولى الجزائرية والذي

نال الحظ الأوفر من الإقبال، ونجح في ما عجزت عنه دروس الأئمة في المساجد ومحاضرات الأساتذة في الجامعات !!. ومع مطلع الألفية الجديدة برزت جملة من المسلسلات الكورية ولعل أهمها مسلسل" **محبوبتي صمصم**"، ليفسح المجال بعد ذلك لموجة المسلسات التركية مع بداية 2008 خصوصا مسلسل "**نور ومهند**" و"**سنوات الضياع**" لبطلته لميس (15).

كل هذا الإكتساح كان ضربة مفصلية لمقاتل المنظومة القيمية للمجتمع الجزائري، لاسيما أمام بروز سلوكات غريبة لدى مختلف الشرائح الاجتماعية؛ وكم كانت دهشتي أثناء إلقاء محاضرة بقسم علم الاجتماع لطلاب السنة الثالثة تربوي، حينما أثاروا بعض القضايا المتعلقة بأثر هذه المسلسلات ، ونذكر على سبيل المثال ـــ لا الحصر – قولهم بروز نوع جديد من أنواع التمور ألا وهو **دقلة مهند** على غرار دقلة نور المعروفة بجودتها العالمية، والأدهي والأمر حينما يطال هذا التأثير المقدسات والتطاول على السنة النبوية الشريفة في حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – : "العلم نور والجهل ظلام" أين تم إدراج مصطلح مهند مكان الظلام، إن الأمر خطير جدا حينما يصل بنا الأمر إلى المساس والإستهتار بمبادئنا ومقدساتنا !! هذا فضلا عن المظاهر الغريبة في اللباس والتجميل وأذكر هنا فيما يتعلق باللباس الإسلامي(الحجاب) بروز علامة تجارية لشركة اقتصادية غربية رائدة في صناعة الألبسة الرياضية على شعر الفتيات اللواتي يرتدين الخمارات ألا وهي علامة : NIKE ()؛ لقد توغل الإعلام إلى الأجساد فأصبحنا فضاءات للإشهار والتسويق ...!

إنه الوعي الزائف الجارف للأصالة الذي تغلغل في العقول فترك الفساد والذهول.

من هذا المنطق كل هذه المعوقات أضفت خللا وظيفيا في أداء الأسرة لأدوارها الريادية، وتبقى هذه المخاطر غيض من فيض لا يمكن الإلمام بها جميعا، ولذلك حاولنا الوقوف عند أهمها فقط.

2- إمكانات التطبيع الاجتماعي في الأسرة :

ويقصد بذلك تلك العملية التي يتعلم بموجبها الطفل كيفية التوافق والتكيف مع الجماعة، ويمكن ذكر أهم هذه الميكانيزمات والأدوات التطبيعية في الأسرة فيما يلي :

أ- الثواب والعقاب :

- **الثواب :** بشقيه المعنوي مثل (الإبتسامة، ونظرات الإعجاب والمدح والثناء ...الخ) التي يبديها الأولياء تجاه أبنائهم، مما يخلق فيهم نوع من الثقة في أنفسهم وتقدير ذواتهم. والشق المادي بتقديم بعض الحوافز المادية (الهدايا بأنواعها).
- **العقاب :** وتختلف الرؤى هنا في الأوساط التربوية والنفسية حول طبيعة هذا السلوك، وذلك لما له من انعكاس سلبي على سلوكات الأطفال، مما يستوجب وعيا حقيقيا بطرق وأساليب القيام بذلك، وذلك حتى تكون نتائجه إيجابية تسهم في تقويم سلوكات الأبناء.

ب- النموذج القدوة :

وهو ما نلح عليه هنا، وذلك لأهمية مبدأ التعليم بالقدوة ؛ أي يجب أن يقوم الوالدين بأدوارهم خالية من التناقض لاسيما في مرحلة الطفولة المبكرة التي تعد المرحلة الحاسمة لتثبيت الكثير من القيم والأفكار، وفي هذا الصدد تقول إحدى المختصات في تربية الطفل : " يمر الطفل بلحظات نفسية يكون استعداده العقلي فيه لتقبل المعلومات قويا، فإذا ما تركنا هذه اللحظات تمر هباء فمن العبث أن نحاول إعادتها، إذ يكون الوقت المناسب قد مضى" (16)

جـ-بناء الإنسان :

إن الهدف المحوري من التنشئة الاجتماعية هو الإنسان، فهو الفاعل فيها وفي تنمية مجتمعه ومنه المتفاعل معها، وذلك باستثمار كل جهوده وطاقاته الكامنة وغرس روح انتمائه الوطنية والقومية، وكل هذا لن يتأت إلا بتحقيق التوافقات الأربعة للإنسان ألا وهي : الروحي، النفسي، الجنسي، والإجتماعي؛ ويعد التوافق الروحي أهم هذه التوافقات على الإطلاق، والذي ينبثق ـــ دون شك ـــ من التربية الإيمانية التي تربط الإنسان بالله سبحانه وتعالى عن طريق الإيمان به عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والقدر خيره وشره، وعن طريق العبادات التي تقرب العبد من ربه، ولأهمية هذه الأخيرة نجد لقمان عليه السلام بدأ بها في تربية إبنه، قال تعالى : ((**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**)) لقمان الأية 13

وأول ما قام به رسولنا الكريم ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في مكة تربية أصحابه رضوان الله عنهم تربية إيمانية ، فنجد السور المكية تدعوا إلى توحيد الله ومحاربة الشرك، مما يولد الإطمئنان في روح الإنسان والرضا بقضاء الله وقدره والتسليم له سبحانه وتعالى في كل شيء ومن مظاهر الصلة الحسنة بالله أن تهتدي الروح إلى تكوين علاقات حسنة وحميمية مبنية على الحب والتقدير والتسامح (17)، ومكارم الأخلاق يقول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وكما يقول أحد الشعراء :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

وكل هذا قصد أنسنة الإنسان، ولن يتأت ذلك إلا بغرس هذه القيم الإسلامية السمحاء في نفوس الأبناء غرسا لا ينفي الآخر كما تحاول المجتمعات الغربية الترويج له من خلال حملات وصم الدين الإسلامي الحنيف بالعنف والإرهاب ...الخ

إن بناء الإنسان يتطلب وعيا حقيقيا غير زائف بمراحله الأربعة التي لا انفصام بينها وهي:

- المرحلة الأولى : الجنينية (مرحلة الولادة).
- المرحلة الثانية : من الإنجاب إلى الوفاة.
- المرحلة الثالثة : الحياة البرزخية (الإنسان في رمسه).
- المرحلة الرابعة : الحياة الأبدية (يوم القيامة)

فهذه الرؤية الشمولية التكاملية تجعل من التنشئة الاجتماعية للإنسان (الطفل الفرد) يدرك أنه لم يخلق عبثا بل خلق لغاية أسمى ألا وهي السمو بإنسانيته من خلال تحقيق الوحدانية والعبودية لخالقه.

رابعا : آلية تفعيل دور الأسرة في تنشئة نموذجية للأبناء بينما هو كائن وما يجب أن يكون :

إن المتفحص لواقع التنشئة الاجتماعية في الأسرة الجزائرية يكاد يجزم أن المشكلات التي أضحت تواجه الأسر في تربية أبنائهم يزاد ثقل أعبائها يوما بعد يوم، إذ وبالرغم من افتراضنا أن كل الأولياء يتمنون الخير لأبنائهم، ويبذلون جهودا جبارة في سبيل ذلك، إلا أنهم يجدون أنفسهم عرضة لمزيد من النقد والتجريح بشكل صريح أو مستتر، فهم يتهمون مثلا بمعاملة أطفالهم بمزيد من القسوة أو على النقيض من ذلك بمزيد من اللين، وهكذا يزداد شعورهم

بالذنب تارة وضعف الثقة وضعف قوة التحمل تارة أخرى، وهذا نتاج عدة أسباب تعود بالدرجة الأولى إلى التطور السريع والمتسارع في أنماط الحياة (ثقافية، اجتماعية اقتصادية..الخ)، فأضحى هناك صراعا جيليا حامي الوطيس بدأت إفرازاته تطفو على السطح بين الأبناء والأولياء، وأصبحت الإنحرافات والجرائم والعنف بشتى أشكاله تكاد تكون فصول قارة في يوميات أسرنا.

إن هذا التناقض وهذا التصادم مرده بالدرجة الأولى إلى قوة وشراسة ثقافة ما هو دخيل وهشاشة وتراجع ما هو قيمي أصيل.

إن العولمة لاسيما في جانبها الثقافي لها من الآثار السلبية ما جعلها ترسخ ثقافات معينة قضت على الوعي، وجعلت من الإنسان آلة تتحكم فيها متى تشاء وتديرها حيث تشاء ... فكان أن أصبح الكثر من شباب اليوم (أطفال الأمس) يرون أنفسهم قد أسيئت تربيتهم وتنشئتهم، وبالتالي من الطبيعي يساء اليوم فهمهم (فاقد الشيء لا يعطيه)، إنهم أضحوا يرون المستقبل مظلما، ووجدوا الظلم والقهر الاجتماعي وإهدار الثروات الهامة وتدمير البيئة...الخ وكل ذلك واقع في عالم سيعيشون هم فيه في المستقبل وليس أوليائهم (18).

إن كل هذا يجعلنا ـــ ندق ناقوس الخطر ـــ كمجتمعات نامية تحتاج إلى يقظة من سباتها العميق لتعيد مراجعة حساباتها، إننا أحوج لأن نعترف بأخطائنا قبل أن نلوم غيرنا، ونتهم الأخر المتربص بنا.

فالخلل يكمن في علاقاتنا الاجتماعية، في تفاعلنا الذي شابه الفتور، في تراجع قيمنا وتنصلنا من أدوارنا **"إننا أضحينا في زمن لا نقول فيه للظالم كف بل نقول فيه للمظلوم أصبر ..."**.

إننا بحاجة إلى حوار جاد وراقي، حوار لا ينفي الآخر بل يغذي فينا روح العيش بوئام مستمر، يعطينا نفسا جديدا متجددا لإستثمار طاقاتنا الكامنة، لإعادة استثمار تاريخنا البطولي الحافل بالإنجازات، وذلك بغرس وتعزيز روح الإنتماء المجتمعي والتعايش الوظيفي الذي يقدس أداء الواجب قبل أخذ الحق.

إن الإهتمام بأطفال اليوم ورعايتهم يعني استثمار طاقاتهم كإطارات للغد ؛ وسوف لن يتأت كل هذا إلا بأداء كل واحد منا : فردا، أسرة، مدرسة، مؤسسة ...الخ أدواره المنوطة به وفق وعي حقيقي غير زائف بما كان وما هو كائن وما يجب أن يكون.

الخاتمـــــة :

في ضوء ما تقدم ومن خلال وقوفنا على مظاهر ودلالات التغير القيمي للأبناء في الأسرة الجزائرية وفق رؤية سوسيو-ثقافية، بمكننا القول بأن النسق الأسري قد تراجع عن أداء دوره الريادي في غرس ثقافة قيمية أصيلة؛ وذلك نتاج العديد من المتغيرات (اقتصادية، سياسية، ثقافية، تكنولوجية، معرفية...) التي عملت على هز استقرار منظومة القيم الأصيلة، واستبدال عناصر فيها لتحل محل عناصر قيمية أخرى زادت فجوة الهوة بين الأفراد، لاسيما على مستوى الأسرة ومنه على المستوى المجتمعي الأوسع، مما أدى إلى تشكل خلل بنائي وظيفي تداخلت فيه الأدوار إلى درجة التناقض مع الطبيعة البشرية والنواميس الكونية، كل هذا يؤكد الهجمة العولمية الشرسة على قيم الشعوب وثقافاتها، وبالتالي إخضاعها لمزيد من الهيمنة.وإذا سلمنا بهذا الواقع المر كحقيقة واقعية فإننا لا ندعوا إلى الاستسلام، بل يجب أن نعمل على تفعيل دور الأسرة أولا وباقي المؤسسات الأخرى في تحصين ثقافة المجتمع والتفتح على ثقافة الأخر بما يعزز كيانها وخصوصية إنتماءاتها الحضارية، وسوف لن يتأت ذلك إلا بالعمل الجاد والمستمر ؛ وذلك بخلق وعي حقيقي في مستوى التحديات الراهنة التي تفرضها العولمة أو لنقل الأمركة بل الصهينة.

الهوامـــش :

أولا-المصادر :

- القرآن الكريم
- الحديث الشريف

ثانيا- المراجـــع :

1- طلعت هشام : سين جيم عن مناهج البحث العلمي، مؤسسة الرسالة، دار عمار، ط1، 1984، ص 81.

1- طلعت هشام : سين جيم عن مناهج البحث العلمي، مؤسسة الرسالة، دار عمار، ط1، 1984، ص 81.

2- أحمد زكي بدوي : معجم المصطلحات في العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان، 1977، ص 401.

3- محمد السيد أبو الليل : علم النفس الإجتماعي، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص 41.

4- إبن منظور : لسان العرب ، مادة اسر ، ج1/ص141.

5- داوة بورقيبة : نظام الأسرة في القرآن الكريم وظائفه وخصائصه مجلة دراسات، العدد 3، جامعة عمار ثليجي الأغواط، ديسمبر 2005، الجزائر، ص59، 60.

6- بن زروق جمال : أثر التلفزيون على سلوكيات وقيم الطفل ، مجلة دراسات ، العدد 02، جامعة عمار ثليجي الأغواط، جوان 2005، الجزائر، ص 22.

7- خالد فائق العبيدي :الوراثة والاستنساخ، ومضات اعجازية من القرآن والسنة النبوية، دار الكتب العلمية، الكتاب (11)، بيروت،2005،ص23.

(*) لمزيد من التفصيل أنظر العنصر المتعلق بتنشئة الأباء في الأسرة الجزائرية بين واقع التغريب ووقوعية التأصيل، ص 11، 12 (بالمداخلة الراهنة).

8- محمد مقداد: القيم الثقافية ودورها في نقل تكنولوجيا ، مجلة العلوم الاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة سطيف، العـــدد 02، 2005، الجزائر، ص- ص 42-44.

9-10- محي الدين مختار: محاضرات في علم النفس الاجتماعي، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1982، ص 196، 197.

11- محمد مقداد : مرجع سبق ذكره، ص 44.

12- محمود حسين : الأسرة ومشكلاتها، دار النهضة العربية، بيروت، 1967.

13- علي وطفة : علم نفس الجنين، مجلة العربي، العدد 433، الكويت، ديسمبر 1994، ص 151.

14- سيترلن : محنة الطفل والأسرة في عالم اليوم، ترجمة نبيل عيزة ، مجلة العربي، العدد 285، الكويت، 1982، ص 103، 104.

(**) يعد الواقع المعيش المصدر الأساسي الذي تنبثق منه مصداقية ما هو نظري ؛ ذلك أنه يؤكد حقيقة الظاهرة ـــ محل الدراسة ـــ بصورة عيانية من خلال حلقات الإسقاط الواقعي للأدبيات والطروحات النظرية من برجها العاجي لتلامس الواقع المعيش للظاهرة الاجتماعية، ومنه لحياة إنسان في المجتمع، وكل هذا يعود بالدرجة الأولى إلى قدرة الباحث في التحكم وتوظيف الأدوات المنهجية.

(***) لمزيد من الإيضاح أنظر عنصر محاذير مفهومية ص-ص 2-5.

15- سعيد خطيبي : من كاسندرا إلى نور رحلة الكشف عن المستور ، جريدة الخبر (يومية) العدد 5556، الخميس 19 فيفري 2009، الجزائر، ص 14.

16- قريب الله العاقل : أطفالنا واستثمار المستقبل، مجلة العربي، العدد 537، الكويت، 2003، ص 171، 172.

17- راضي عبد المجيد طه، عبد الحي محمد علي : تفعيل دور الأسرة في تحقيق بعض جوانب التربية الإيمانية للطفل في ضوء تحديات النظام العالمي الجديد، مجلة البحث في التربية وعلم النفس (دورية ربع سنوية)، كلية التربية، جامعة المنيا، المجلد 17، العدد 03، مصر، 2004، ص 81، 82.

18- ستيرلن: مرجع سبق ذكره، ص104،103.